القراءة المرجعية في مآخذ ابن معقل على شراح المتنبي

أ.تسعديت قوراري
جامعة تيزي وزو

Abstract :
This study is a reading in a book (entitled the approach to commentators of the Diwane of Abi Tayeb Elmoutanabi of Ibn Maakil Alazdi, the approach to commentators of Altabrizi and Kindi's comments as modals. Adopting the following problimatic: How did Ibn Maakil receive these comments? Did he add something to these comments? was he able in his approach to both ELkindi and Altabrizi to produce a parallel work (text) to the one mentioned previously? What means a real contribution to produce either an efficient significance or it did not output the framework of the original source to which it referred.

تمهيد:

المتنبي ذلك الحدث الفنّي العربي، الذي شغل النّاس في حياته ومماته، شاعر عرف كيف يستنطق اللّغة الشعرية، ويغوص في أعماقها ويشتغل على ادق جزئياتها فأحسن الغوص في بحرها، فكانت قصائده عوامل شعرية فينشغل النّاس في فكّ شفراتها والبحث في مراميها دون أن يتحقّق لهم ذلك، في حين ينام قرير العين ساخرا منهم :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

لقد حظي ديوان المتنبي من الشروح ما لم يحظ به شاعر قبله ولا بعده، واختلف الشرّاح في تفسير بعض أبياته أو ما يسمى بأبيات المعاني، وهي النصوص التي تميل إلى الغموض والتكثيف الدلالي، فلا يتسنّى لكثير من النّاس فهمها بسهولة لأنّ الشّاعر قصد إليها قصدا.

ومن هذه الشروح تلك التي درسها أبو العباس أحمد بن علي بن معقل الأزدي المهلبيّ (567 هـ . 644 هـ) في كتابه: المآخذ على شرّاح ديوان أبي الطيب المتنبي.

وقد اقتصر في مؤاخذاته على خمسة شرّاح هم: ابن جنّي في «الفسر» وأبو العلاء المعري في «اللاّمع العزيزي» والتبريزي في «الموضح» والكندي في «الصفوة» ثم الواحدي في كتابه « شرح ديوان المتنبي».

قرأ ابن معقل هذه الشروح ونقدها فعرف مواطن الضعف في كلّ منها -حسب رؤيته -فنبّه إلى ما أغفله النقاد، وفي الوقت ذاته تعدّ هذه المأخذ نقدا للمتنبي نفسه، وقد صرّح – في غير موطن واحد في كتابه حول فضله في إيراد تفسيرات لأبيات المتنبي التي لم يسبقه إليها أحد.

لكن ما يّهمنا في هذه المآخذ هو كيف تلقّى ابن معقل هذه القراءات (الشروح). وماذا أضاف إليها، وما استراتجيه قراءته لها ؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال هذه المقاربة ومن خلال مآخذ ابن معقل على شرح التبريزي الموسوم «بالموضح » ومآخذه على شرح الكندي الموسوم «بالصفوة».

I. استراتيجية القراءة:

يعرّف سارتر J.P.Sartre العمل الأدبي بكونه «خذروف غريب لا وجود له إلاّ في الحركة ولأجل استعراضه أمام العين لا بدّ من عملية حسّية تسمى: القراءة، وهو يدوم ما دامت القراءة، وفيما عدا هذا لا يوجد سوى علامات سود على الورق.» (□) وهذا يعني أنّ النّص الأدبي يستمّد وجوده بفعل القراءة، وهو فعل تواصلي وتفاعلي بين القارئ والنّص وهو الذي يخرج النّص الأدبي من حالة الإمكان إلى حالة الإنجاز، ومن ثم «تكون عملية القراءة هي تشكيل جديد لواقع مشكّل من القبل هو العمل الأدبي نفسه (...) وعندئذ تنصب عملية القراءة على كيفية معالجة هذا التشكيل المحّول من الواقع وتتحرّك على مستويات مختلفة من الواقع: واقع

الحياة، وواقع النّص وواقع القارئ وأخيرا واقع جديد لا يتكوّن إلاّ من خلال التلاحم الشديد بين النّص والقارئ»[بر]. وهذه العلاقة بين القارئ والنّص تنفي بالضرورة وجود دلالة واحدة للنص، يضفر بها القارئ، لأنّ في ذلك استنزاف لاحتمالات القول وتخّط لمعاني النّص المتعددة، وإنّما ما يظفر به القارئ من معان للنص ليست إلاّ نتيجة تفاعل بين معطيات النّص واجتهاد القارئ وتأويله له.

ولهذا يقول أيزر أنّه «إذا كان الموقع الفعلي للعمل يقع بين النّص والقارئ فمن الواضع أنّ تحقيقه هو نتيجة للتفاعل بين الاثنين.»[تر].

وهذا التفاعل بين الإنتاج والتلقي لإخراج العمل الأدبي إلى الوجود هو ما عبّر عنه سارتر بقوله: «إنّ عملية الكتابة تتضمّن عملية القراءة لازما منطقيا لها، وهاتان العمليتان تستلزمان عاملين متميزين، الكاتب والقارئ، فتعاون المؤلف والقارئ في مجهودهما هو الذي يخرج إلى الوجود هذا الأثر الفكري وهو النتاج الأدبي المحسوس الخيالي في الوقت معا، فلا وجود لفن إلاّ بواسطة الآخرين ومن أجلهم.»[ير].

انطلاقا من كون معنى النّص يتحدّد وفق تفاعل بينه وبين المتلقي ومن ثم يتعيّن فعل القراءة بوصفه مشاركة في إبداع النّص، فهل يتحقق مثل هذا الدّور لابن معقل باعتباره متلقيا لهذه الشروح ؟ وهل استطاع في مآخذه على كلّ من التبريزي والكندي أن ينتج نصا موازيا لها وبذلك تكون المشاركة في إنتاج المعنى فعلية ؟ وبعبارة أخرى ما استراتيجية تلقيه لهذه الشروح وما آليات هذه القراءة ؟

اعتمد ابن معقل في قراءته لهذه الشروح إستراتجية خاصة تحيل على الإطار المرجعي لها، وهي استراتجيه يمكن أن نميزّ فيها بين مستويين من مستويات التلقي وهما:

1/ مستوى التفسير: إنّ المسوغ الأوّل في اعتبارنا التفسير آلية من آليات قراءة ابن معقل للشروح، ورود هذا المصطلح أكثر من أربعين مرّة في مأخذه على

التبريزي والكندي، والتّفسير كما جاء في لسان العرب في مادة فسر «الفسر، : البيان، فسر الشيء يفسّره بالكسر، ويفسره بالضّم فسرا، وفسّره أبانه، والتفسير مثله والفسر كشف المغطّى والتّفسير كشف المراد عن اللّفظ المشكل.»(□)

والتّفسير كما يذهب إليه ابن معقل في المآخذ هو بحث عن دلالة النّص اعتمادا على اللّغة باعتبارها الوسيط بن المبدع والمتلقي، فيها يتم بناء النّص الشعري، وبها يتم تلقيه واستيعابه.وبهذا يكون المدخل اللغوي والنحوي آلية من آليات القراءة عند ابن معقل، وتتحكم في هذه الآلية جملة من المعايير أبرزها تتبّع دلالة المفردة في السياق أو بيان مرادفاتها وعلاقاتها النحوية في السياق نفسه وهذه بعض الأمثلة على ذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر.

يقول المتنبي :

أضمتني الدّنيا فلّما جئتها مستسقيا مطرت عليّ مصائبا.

رأى التبريزي في هذا البيت أنّ المتنبي «أراد «أضّمأتني» فحذف الهمزة، ويحمل ذلك على أن يقال «أظمأ» في الوقف فسكن الهمزة، فإذا سكنت وقبلها فتحة، جاز أن تجعل ألفا كما فعلوا ذلك في «فأس» و«رأس» وإذا صارت إلى ذلك حذفت مع تاء التأنيث ومنهم من يرى ذلك مطرّدا ومنهم من يجعله مسموعا»(□). آما ابن معقل فرأى أنّ «هذا التعليل غير سائغ، والصحيح ما قاله سيبويه وهو أنّهم حملوا ذلك على الهمزة التي تجعل بين بين فقلبوها ألفا للفتحة قبلها لأنها صارت لضعفها بمنزلة الهمزة الساكنة كقولهم: «منساة»، ويدل على ذلك، أنّ همزة «بين بين» لا يكون ما قبلها إلا متحرّكا، لئلا يلتقي ساكنان، إلاّ الألف، فإنها جاز معها ذلك في نحو «هباءة» لزيادة المدّ فيها فأشبهت المتحرّك فقلبوها في «منساة» و«أضماني» ونحو ذلك تشبيها لها بهمزة «سأل» «وقرأ» ثم حذفوها إذا لقبها ساكن بعدها لأنها قربت من الساكن»(□).

نقف في هذه النقطة لنرى كيف يستشهد ابن معقل بسيبويه في تغليطه تفسير التبريزي باحثا عن الأصل اللّغوي للمفردة.

كما رأى التبريزي في بيت المتنبي :

شديد الخنزوانه لا يبالـي أصاب إذا تمر أو أصيبا.

كيف أنّ الهمزة حذفت من (أ أصاب) للضرورة، أما ابن معقل فذكر أن الحذف ليس ضرورة لأنه يقال: (أصاب) أو (صاب)(□) مستندا في ذلك إلى الاستعمال وكيفياته

وفي تفسيره لبيت المتنبي:

وطعن كأنّ الطّعن لا طعن عنده وضرب كأنّ النّار من جرّه برد.

رأى التبريزي أنّ «الهاء» في «عنده» تعود على كلمة «طعن» الأولى من صفته، و(الطعن) الثانية اسم(كأنّ) وخبرها الجملة التابعة بعدها، والعائد عليه منها ضمير محذوف للعلم به كأنّه قال : وطعن كأنّ الطعن لا طعن منه أو به عنده.» أمّا ابن معقل فيرى أنّ «العائد على اسم كأنّ غير ضمير يقوم مقام الضمير، وذلك أنّه لمّا قال:

«كأنّ الطعن لا طعن، نفى نفيا عاما، فعاد من الثاني إلى الأوّل لعمومه. ودخول الأوّل تحته عائد معنوي ومنه:

وأمّا الصّدور لا صدور لجعفـر وأمّا القتال لا قتـال لديكـم.

ومثله: نعم الرّجل زيد، العائد إلى زيد المبتدأ، كما في الرّجل من عموم الجنس»(□). ومن ذلك أيضّا – إعتماده وجها نحويا – تخطيئه التبريزي في تفسيره لبيت المتنبي:

إلى اليوم ما حطّ العداء سروجه مذ الغزو سار مسرج الخيل ملجم.

قال التبريزي: «الغزو، مرفوع بالابتداء وخبره محذوف، والتقدير مذ الغزو كائن، أو واقع. يعلّق إبن معقل على هذا التّفسير بقوله: «هذا ليس بشيء» والكلام تام لا يحتاج إلى تقدير محذوف، وقد ذكرته في شرح الواحدي»(□□) و نشير إلى إن عبارة «هذا ليس بشيء» تتردّد في الكتاب عدّة مرّات، وغيرها من عبارات التجريح مثل «قلّة التحصيل»، و«هذا وهم»، و«سوء فهم» وغيرها من العبادات التي كان بإمكان بن معقل تجنّبها، وهو الحاكم الموازن بين هذه الشروح.

وفي بيت المتنبي:

ومن يجد الطريق إلى المعالي فلا يذر المطيّ بلا سنام

يفسّر الكندي هذا البيت على أنّ المتنبي «تعجّب ممّن له نفاذ وعزيمة، ويجد طريقا إلى المعالي ولا يسري إليها سرّى يقطع أسنمة الإبل». أمّا إبن معقل فرأى أن «التفسير على أنّ «ومن» معطوف على «لمن» قبله ليس كذلك، ولو أراد العطف على البيت الأوّل لكان ينبغي أن يكون قوله: «ولا يذّر» بالواو لا بالفاء حملا على البيت الأوّل وهو.

عجبت لمن له قدّ وحد وينبو بنوة القضم الكهام

ويكون «ينبو» بالنّصب لأنّ الواو للجمع». (□□)

تمثل هذه النماذج من النقدات النحوية واللّغوية، وغيرها كثير في المآخذ اهتمام ابن معقل بالجهة النحوية واللّغوية، وهو يخطئ كلّ من التبريزي والكندي من الزاوية ذاتها، فكانت مآخذة عليهما من هذا الجانب منصبّة على مدى مطابقة المفردة للقاعدة النحوية واللّغوية تارة، والإهتمام بالبيت الشعري منتزعا سياقه العام في القصيدة تارة أخرى، وهذه النظرة الجزئية للنّص نعني الاهتمام بالبيت دون القصيدة ليست مأخذا على التبريزي والكندي فحسب بل

على ابن معقل أيضا ماعدا حالات قليلة أين يحيل فيها معنى البيت إلى البيت الذي قبله أو بعده مثل ما نلاحظ في تفسيره لبيت المتنبي:

تصيب المجانيق العظام بكفّه دقائق قد أعيت قسيّ البنادق.

يقول التبريزي: «وصف الشاعر الممدوح بأنّه لطيف، يصيب بحجر المنجنيق، للطف رأيه ما لا تصيبه البندقة التي تخرج من قوس البندق»(برقوق) فيعلّق على ذلك إبن معقل بقوله: «إنّ المعنى بخلاف ما ذكر، ولم يتنبه عليه أحد من الجماعة، وهو أنّه ينال بالمجاهرة والقسر، ما لا ينال غيره بالمجاملة والمكر، فكنى عن المجاهرة والمغالبة بالمجانيف لعظمها، وعن المشارّة والمخاتلة بقسيّ البندق لصغرها. والذي يدلّ على هذا المعنى البيت الذي قبله وهو قوله:

ولم أر أرمى منه غير مخاتل وأسرى إلى الأعداء غير مسارق(ترقوق)

تعد اللّغة في مفهوم ابن معقل من خلال هذا الجانب اللّغوي عاملا مساعدا على شرح النص الشعري و«إذا أبدى القارئ الشارح إهتمامه بما قبل البيت وما بعده فليؤكّد دلالة البيت التي استقر عليها فهمه، وليس لتطوير المعنى، ولذلك ليس لدى الشارح تصور متماسك للنّص مع أنّ بعض الشارحين يدركون إرتباط المعاني بين الأبيات.»(برقوق)

هكذا يتضح ارتباط مفهوم التّفسير بالشّرح، ونعني به هنا – الشّرح – عدم تجاوز ظاهر العبارة على مستوييها اللّغوي والنّحوي، في حين يمثل مصطلح التّفسير في الفكر النّقدي العربي مرحلة ثانية بعد الفهم، إذ «في المرحلة الأولى يكون الناقد على وفاق مع النّص، فالفهم يعني – عند «هيدجر» Heidegger - توحّد النّاقد أو المفسّر مع النّص، أمّا التفسير فهو عملية «تطور الفهم» وهو بمثابة الوصف الفينومينولوجي لهذا الفهم، والتفسير عند« هيدجر» ليس اكتسابا لمعلومات عمّا يكون مفهوما (...) إنّ التفسير هو وصف للفهم، وهو

يبدأ من هذا الفهم.»[□□] في حين يرمي كلّ من الشرح والتفسير عند ابن معقل وغيره من النقاد القدامى إلى غاية واحدة هي فهم معنى النّص وبلوغه.

2/ مستوى التأويل: لعلّ ما يدفعنا إلى اعتبار التأويل وجها آخر من أوجه قراءة ابن معقل لهذه الشروح حرصه الشديد على الوصول إلى قصد الشاعر، وإن كانت آليته في ذلك مرتبطة غالبا باللّغة. ومن ثّم تبنّيه لجملة من المصطلحات التي تحيل إلى هذا المستوى من القراءة. فقد نجده يستخدم لفظة (يحتمل) حين يورد وجهين أومعنين أو أكثر للبيت أو يضيف معنا أخر إلى ما ذكره التبريزي أو الكندي، كما إعتمد مصطلح (الوجه) إذ يقول في غيرموطن واحد « هذا وجه، والوجه الآخر...» حينما لا يدحض تفسير التبريزي أو الكندي، وإنّما يضيف إليه وجها أخرا، وغيرها من المصطلحات ممّا يؤكدّ اضطلاعه بدور المؤول باحثا عن المعنى البعيد وقصدية الشاعر.

فإذا كان التأويل يمثل في الفكر العربي «حالة خاصة من حالات الفهم»[□□] فأي حالة تمثلها قراءة إبن معقل التأويلية ؟ وهل إضطلع بدور المؤول الذي يسعى إلى تجاوز ظاهر المعنى إلى خفيه؟ ويساهم في إعادة تشكيل النّص وخلقه من جديد ؟ أو أنّ دوره لا يتجاوز الوصول إلى المعنى فحسب ؟.

ثمة جملة من المعايير تدفعنا إلى التسليم ولو نسبيا بقدرة ابن معقل على تجاوز القراءة الاستكشافية كما يسميها ريفاتير reffatere ، والتي يتّم فيها فهم المعنى إلى القراءة الإسترجاعية التي تتم فيها عملية التفسير الثانية لتحقيق القراءة التأويلية. [□□] من هذه الممكنات أو الآليات :

أ/ المعنى بين النفي والإثبات: تتعلّق مآخذ ابن معقل على التبريزي والكندي على مدى قدرتهما على إدراك بعض ما ألمح إليه أبو الطيب المتنبي من معانيه العميقة في أبياته والتفطن إلى المعنى البعيد، في حين إقتصر إدراك التبريزي والكندي على المعنى العام القريب ولم يتجاوزاه إلى المعنى الخاص الذي

أراده المتنبي. ولهذا نجده – إبن معقل –ينفي المعنى الذي توصل إليه التبريزي ويثبت ما أدركه هو من معاني بعيدة يراها مقصد الشاعر، ومن ذلك بيت المتنبي:

فلّما نشفن لقينّ السّياظ بمثل صفا البلّد الماحل

التبريزي «رأى أنّ عرق الخيل أبيض، فلما يبس على ظهورها، لقيت السّياط بمثل صفا البلد الماحل، أي أنّها مبيضّة بالعرق، أمّا إبن معقل ينفي أن يكون المراد البياض وانما الصلابة، و«خصّ صفا البلد الماحل لأنّه أبعد عهدا بالمطر من غيره، فهو أصلب»(□□) وحجّته في ذلك الإستشهاد بأبيات شعرية لإمرى القيس وعلقمة لمّا تمثّله من مرجعية لغوية ذات اعتبار، وهنا نشير إلى دور المؤسسة التي تحدد الذوق ومقاييسه• وفي بيت المتنبي :

يمشّي به العكّاز في الدير تائبا وما كان يرضى مّشي أشقر أجردا

يفسّر التبريزي البيت على أنّ فيه قلب «وأصل الكلام يمشي في الدير بالعكاز إلاّ أنّه لما كانت تؤديه إلى المشي، جاز أن تجعل هي الماشية كقولهم: ليل نائم، لما كان مؤدّيا إلى النوم» (□□) نفى ابن معقل هذا الفهم بأشّد عبارات التجريح كعادته «هذا ليس قلب في البيت وإنّما هو قلب في الفهم. بل هي استعارة ومجاز.» (□ بر)

ومثل ذلك قوله مدحضّا تفسير التبريزي في تفسيره لأبيات المتنبي. «أنظر إلى هذا التفسير، وما فيه من قلّة التحصيل، وكثرة الجهل باستعارة العرب !»(□ بر) وهذا ما يبين كيف أن كلام العرب هو القياس الدائم الذي يوجه القراءة، وفي بيت المتنبي :

ما قوبلت عيناه إلاّ ظنّتا تحت الدجى نار الفريق حلولاً.

يتوقف تفسير الكندي للبيت على لفظة «نار» إذ لو وردت «نارين» بالتثنية لكان أحسن، في حين يتجاوز ابن معقل ذلك إلى البحث عن الدلالة فيقول:

« إنّما شبّه عينيه في الدّجى بالنّار للا ضاءة، فكلّ واحدة منهما تشبه النّار في النّور، فجعلهما كنار الفريق، وهو القطعة من النّاس يكون لهم نار واحدة فهي أقوى من غيرها.» (بر بر)

هكذا نجد إبن معقل حين يعمد إلى نفي معنا من المعاني واثبات آخر، يستند إلى وجه بلاغي من خلال فك الصورة المجازية وتجاوز ظاهر العبارة إلى تأويل موسع .

ب/ التأويل بالشاهد الشعري: يعدّ هذا الضرب من التأويل ضمن أهم مرجعية اعتمدها إبن معقل في تأويله، لما للشعر من حجية مطلقة، من ذلك قول المتنبي :

فإنّ الحسام الخضيب الذّي قتلتم به في يد القاتل

رأي التبريزي «أنّ الخضيب: الذي من شأنه أن يخضب، أي: بمعنى خاضب، ويعني بالحسام سيف الدولة.»(تر بر)

يتبنّى إبن معقل تفسير التبريزي مستشهدا ببيت شعري لأبي تمام وحجته لغوية، إذ وقف من خلالها على ظاهرة تعدّد المعنى اللّغوي للكلمة الواحدة (الخضيب)، ففضلا عن المعنى الذي أورده التبريزي يضيف معنا أخر محتملا وهو: أن يكون الخضيب بمعنى المخضوب، ويكون صفة سيف الدولة وهو ها هنا القاتل أي: سيفه معدّ لكم إن عدتم كما عهدتم. »(بر بر) ويعتّد بالحجّة نفسها في تأويل بيت المتنبي :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معيي المطيّ ورازمه.

يقول الكندي: معناه: إذا نظرت إليك الإبل الرّزح المعيبة جعلت ثواب ذلك أن تنهض وتسير لما نالها من قوّة الأنفس والنشاط فكيف بنا نحن، ونحن نعقل من أمرك ما لا تعقله الإبل.»(□ بر) أما ابن معقل فيرى أنّ هذا المعنى الذي أورده الكندي ليس بشيء ! وحجّته كما ذكرنا لغوية، إذ تحتمل لفظة

«أثاب بها» إحتمالين أو لهما: أثاب بها من الثواب، وهو الجزاء، والأخر بمعنى عدا ونهض(□ بر) ويحتج ببيت شعري لأبي نوّاس ليبين محتمل الدلالة.

وقد تكون الحجة في اختيار معنا دون أخر غير لغوية كما هو الشأن بالنسبة لبيت المتنبي :

تبلّ خدّيّ كلّما إبتسمت من مطر يرقه تناياها.

يورد التبريزي معنيين محتملين للبيت نقلهما عن أبي العلاء المعرّي، فأثبت إبن معقل معنا ونفى الآخر، وحجّته في ذلك شيوع المعنى المثبت وكثرة استعماله و هذا دليل مركزية مؤسسة الاستعمال مستشهدا في ذلك ببيت شعري لأبي نّواس. (لم بر) وهنا يمكننا القول إن الاحتجاج بالمشهور من المعاني، أو ما جرت به عادة العرب، احتجاجا قائما على المواضعة والسنن الأدبية التي تحدّد أفق توقّع المتلقي وهو«أفق قائم قبل النّص يستند إليه الأخير ويقوم عليه، فاذا خالف النّص التوقع رفضه القارئ، والأمثلة على هذا كثيرة في كتب النقد والبلاغة فضلا عن كتب الشروح، ولا نريد بالتوقعات هنا بالمؤثرات اللّغوية، وإنّما تلك التي نسميها ب (التقاليد) و(المؤسسات).»(□ بر) بل يمكن اعتبار الإحتجاج بالشاهد الشعري نفسه ليس إلاّ وجها من أوجه هذه المواضعة الأدبية القائمة على مرجعية تحقق أفق توقع القارئ، و تكريس السنة المتواضع عليها.

ج/ التأويل بالشاهد القرآني: يعدّ الشاهد القرآني آلية من آليات الكشف عن المعنى عند ابن معقل، إذ بلغت مواضع الإستشهاد بالآيات القرآنية عشر مرّات في الكتاب محاولا بها إيجاد وجه مشروع لإثبات ما توصّل إليه من. معنى مخطّئا في الوقت نفسه شروحات التبريزي والكندي، ومن ذلك وقوفه عند بيت المتنبي:

إذا ورمت من لسعة مرحت لها كأن نوالا صرّ في جلدها النّبر.

يفسّر التبريزي البيت على هذا النّحو: «هذه الناقة إذا لتسعها الدّباب، مرحت لذلك، كأنّها تفرح، فكأنّ الورم الذي يحدث فيها نوال صرّه في جلدها.»(□ بر) أما ابن معقل يقول: «وعندي في هذا المعنى زيادة فيه وتحرير له، وذلك أنّه لمّا وصفها بالمرح، وهو من شدّة الفرح، والفرح من صفات من يعقل، جعل من لسع النير بمنزلة الصرّر من النوال التي يفرح بها من يعقل، فهي حال لسع الذباب لها، وألمها بها، وقلقها منها، كأنها مرحة لا متألمة قلقة، وهذا التفسير ينظر إلى قوله سبحانه وتعالى: «إنّي رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين.»(□ تر) ووجه الاستدلال بالآية كما يقول: «لمّا وصف الكواكب بالسّجود، وهو من صفات من يعقل، جمعها جمع من يعقل، وكذلك أبو الطّيب لمّا وصف النّاقة بالفرح، وهو من صفات من يعقل، جعل الورم في جلدها كصرر النّوال التي لا يفرح بها إلاّ من يعقل.» (□ تر)

وفي موضح آخر من الكتاب يستشهد إبن معقل بآية قرآنية وفي الوقت نفسه ينتقد التبريزي بعدم قدرته على إدراك جوهر الكلام من خلال بيت المتنبي:

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصّبر رمّوا لا الجمالا.

يكتفي التبريزي بظاهر البيت فيقول: «ادّعى أنّهم لم يشاؤوا الرّحيل، ولا محالة أنّهم شاؤوا الرحيل، وزعم أنّهم لم يزمّوا الإبل، وتلك دعوى ليست بالصحيحة.»(بر تر) آمّا ابن معقل فيقول: «إنّ هذا نقد غير بصير الجوهر الكلام ! وذلك أنّ هذا الكلام إنّما ذكره على وجه المبالغة كما يقال، مامات زيد ولكن مات الجود. وما سار عمر و ولكن سار الكرم، وإن كان زيد وقع فيه الموت، وعمرو منه السّير، ومثله قوله تعالى:

«وما رميتّ إذ رميت ولكن اللّه رمى». (تر تر)

ومن الزاوية نفسها -المبالغة – ينتقد إبن معقل الشاعر نفسه في هذا البيت:

في فيلق من حديد لوقذفت به صرف الزّمان لمادرات دوائرة.

يفسّر الكندي البيت على هذا النّحو: «لبهت الزمان وتحيّر ولم تتغيّر على أحد به حال». (ير تر) وابن معقل يجد الشاعر قد «بالغ في القول ! ذلك أنّ أوفي ما يوصف عند هم بالإقدام والإهلال صرف الزّمان، ولهذا قال سبحانه حكاية قولهم: «وما يهلكنا إلاّ الدهر» فقال: إنّ فيلق الممدوح، وهو جيشه العظيم، لورمي به صرف الزمان، الذي هو أعظم الأشياء، لما درات على أحد دوائره، أي: أحداثه ونكباته، ولشغله ما يلقاه منه من التعرّض لغيره.» (□ تر)

إنّ الشواهد التي قدمناها وغيرها كثيرة تكفي للدلالة على تعويل ابن معقل على الشاهد القرآني مسلكا في تأويل آبيات المتنبي في لغتها ومعانيها وصورها على اعتبار أن القرآن مصدرا للمعنى أو منتجا للحقيقة، غير أنّ مالمسناه في هذه الشواهد آن ابن معقل كان حبيس النظام اللّغوي الثابت ومعايير النقد العربي القديم، ولعّل هذا الإطار المعرفي الضيّق كان عائقا في وجه ممارسته التأويلية وهو – التأويل – بهذا الشكل مجرّد درجة عالية من درجات الفهم لا غير، كمّا عبّر عن ذلك الجرجاني الذي كانت غايته ليس إنتاج الدلالة بل إصرار على المطابقة بين الدوال ومدلولاتها، وعلى هذا لم يعد التأويل بهذا النّحو عند إبن معقل قراءة فيما بين السطور ولا بحثا على المتوارى والمسكوت عنه، بل وقف عند حدود إعتباره أداة مساعدة على شرح النصوص وتفسيرها قصد بلورة القصد. ومع ذلك إستطاع ابن معقل أن يتجاوز المعنى

الظاهري الذي وقف عنده التبريزي والكندي إلى الاجتهاد و التأويل حين يبلغ تكثيف الدلالة مستوى يتجاوز أفق القارئ العادي والمفسّر معا.

يعد التفسير والتأويل آلية واحدة اعتمدها ابن معقل في مقاربة نص المتنبي غايتها بلورة القصد. هذا «القصد الذي شكل المحور الذي تدور عليه هذه الفعالية النقدية، حتى في الحالات التي يحاول فيها الشارح أن يمارس دورا إيجابيا في التفسير والتأويل، وهو دور يحاول فيه أنّ يخرج عن سلطة الشاعر، وأن لا يكون صدى لصوته، ولكنه في واقع الأمر كان يربط تفسيره وتأويله بقصد الشاعر.» (□ تر)

وما يدلّ على البحث عن القصد وارد في الكتاب أكثر من مرّة، من ذلك قول ابن معقل : «هذا هو المعنى الذي أراده أبو الطيب المتنبي لمن تدبّره بقلبه وأنصف بلسانه .» (لم تر) وتتكرّر عبارة «لعلّه قصد» و«لم يرد ... بل أراد» مرّات عديدة في الكتاب، وهذا يعني إصرارا إبن معقل على كشف قناع معنى الشاعر لبلوغ القصد.

فإذا كان الخروج عن مفهوم القصد ليس بالأمر الوارد عند ابن معقل فإنّ (ستانلي فيش) Stanly Fish يتخّذ موقفا مخالفا لذلك، فهو يرى أنّ «الاعتماد على قصد المؤلف شيء ناقص، حيث يتجاهل جانبا مهما من التأويل، أي تأثير مكوّنات النّص على القارئ.» (□ تر)

إذا كان الإعتماد على قصد المؤلف شيئا ناقصا كما يقول فيش، فإن إدراك مقاصد الشاعر في اعتقاد ابن معقل لا تتأتى لأيّ قارئ، بل الذي يمتلك **قدرة موسوعية متميزة** تمكنّه من متابعة كيفية إنتاج القول الشعري، وهذا ما جعل ابن معقل يعتمد أسلوب التجريح فيما أورده التبريزي و الكندي من تفاسير

لأبيات المتنبي جانبت الصواب في رأيه، من هذا الأسلوب، قوله وهو يخطّئ تفسير الكندي لبيت من آبيات المتنبي: «إنّ كثيرا من النّاس يتبع بعضهم بعضا في الخطأ إسترسالا من غير تأمل ولا تدبرّ، فلا أشبههم بالعميان المتابعين المتصلين حبلا، يعثر الأوّل منهم بحجر صغير، أو يقع في حفر قصير، فلا يتكلّم خبثا ولعنة، ويتتابعون كذلك، وذلك أنّهم علموا بالوقوع ولم يتكلّموا، ولكن أشبههم بالذباب الذي يقع في اللبن أو الفراش الذي يلقي نفسه في النّار ولا يعلم.»(□ تر) وأكثر من ذلك قوله: «...وجديد لمن لم يضرب في الشّعر بسهم ولم يقف منه على رسم، ومن لم يعرف منه غير اسم ان يفسره هذا التفسير و يعبر عنه بهذا التعبير!! »(□ ير)

فالتدبّر والتأمّل والإنصاف هي جملة من الشروط يراها إبن معقل ضرورية في عملية التلقي.

ما نخلص إليه في هذه الدراسة، هو اعتبار قراءة ابن معقل أقرب إلى محاولة إنتاج نّص آخر، من قراءات التبريزي والكندي التي اكتفت في الغالب بظاهر اللّفظ.

– حاول إبن معقل فكّ الصورة المجازية من استعارة ومجاز إلاّ أنّ قراءته لهذه الشروح بقيت رهنية البعد اللّغوي الأسلوبي.

– تشكل اللّغة آلية من الآليات الجوهرية التي اعتمدها ابن معقل في تفسيره لأبيات المتنبي باعتبار أن اللّغة هي الوعاء الحامل للنّص الأدبي• وأبرز ما في منهجية ابن معقل في تعامله مع قواعد اللّغة هو تمسّكه بالتفسير بالشاهد الشعري والشاهد القرآني باعتبارهما حجة مطلقة. ولعلّ تفيد إبن معقل بهذا المفهوم للّغة يعكس حرصه الشديد على بلوغ قصد الشاعر وعدم تجاوز إطار

التفسير بالمأثور إلى فضاء معرفي واسع، تكون فيه اللّغة عاملا مهما في استنطاق النصوص وتأويلها. ان قراءة ابن معقل لشروح التبريزي والكندي لم تخرج في مجملها عن المعايير النقدية المتعارف عليها، أبرزها: مطابقة المعنى لماعرف من معان عن العرب، المشهور عند الشعراء، الفصيح من كلام العرب، وغيرها من المعايير التي شكلّت المنظومة النقدية القديمة.

الهوامش:

1 – جون بول سارتر: ما الأدب ؟ ترجمة وتعليق: محمد غنيمي هلال، د– ط، دار نهضة مصر، للطبع والنشر، القاهرة، د–ت، ص 49.

2 – نبيلة إبراهيم: القارئ في النّص (نظرية التأثير والاتصال)، مجلة فصول (الأسلوبية) م5، العدد1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص 102.

3 – فولفغانغ أيزر: فعل القراءة، ترجمة وتقديم: حميد لحمداني والجلالي الكدية، د–ط، مكتبة المناهل، فاس، د – ت، ص 12.

4 – سارتر: ما الأدب ؟ ترجمة وتعليق: محمد غنيمي هلال، ص 49.

5 – ابن منظور: لسان العرب، مادة فسر، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، 1956، ص 55.

6 – ابن معقل الأزدي المهلبي: المأخذ على شرّاح دايون أبي الطيب المتنبي، الجزء الثالث (المأخذ على شرح التبريزي الموسوم بالموضع)، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع – مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، الرباط، 2001م، ص 14– 15

7 – المرجع نفسه، ص 18.

8 – ينظر: المرجع نفسه، ص 18.

9 – ابن معقل: المأخذ على شرح التبريزي (الموضح)، ص 35 – 36.

10 – المرجع نفسه، ص 153.

11 – ابن معقل: المآخذ على شرح الكندي (الصفوة)، ص 67.

12 – ابن معقل: المأخذ على التبريزي (الموضح)، ص 76.

13 – المرجع نفسه، ص 76.

14 – ناصر حلاوي: قراءة التفسير والتأويل، المتنبي أنموذجا، مجلة الملتقى، ع 51 – 6، (ملف – التأويل)، مراكش، 2003، ص 99.

15 – توفيق السعيد: الخبرة الجمالية (دراسة في فلسفة أعمال الظاهرانية، هيدجر، سارتر، مبرلوبني، دوفرين، إنجاردن)، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص 124.

16 – بول ريكور: نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة: سعيد بنغراد، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2003، ص 118.

17 – ينظر: فاظل ثامر: اللّغة الثانية (في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي، الحديث)، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1994، ص 51 – 52.

18 – ابن معقل: المآخذ على التبريزي (الموضح)، ص 99.

19 – المرجع نفسه، ص 25.

20 – نفسه، ص 25.

21 – ابن معقل: المآخذ على التبريزي (الموضح)، ص 30.

22 – ابن معقل: المآخذ على الكندي (الصفوة)، ص 29.

23 – ابن معقل: المآخذ على التبريزي (الموضح)، ص 101.

24 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

25– ابن معقل: المآخذ على الكندي (الصفوة)، ص 43.

26 – ينظر المرجع نفسه، ص 43.

27 – ينظر: المآخذ على التبريزي (الموضح)، ص 167.

28 – ناصر حلاوي: قراءة التفسير والتأويل، المتنبي أنموذجا، ص 103.

29 – ابن معقل: المآخذ على التبريزي (الموضح)، ص 54.

30 – المرجع نفسه، ص 54.

31 – نفسه، ص 55

32 – نفسه، ص 122.

33 – ابن معقل: المأخذ على الكندي (الصفوة)، ص 15.

34 – ابن معقل: المآخذ على الكندي (الصفوة)، ص 15.

35 – المرجع. نفسه ص 15.

36 – ناصر حلاوي قراءة التفسير والتأويل المتنبي أنموذجا، ص 39.

37 – ابن معقل المآخذ على الكندي الصفوة ص 82.

38 – الجلالي الكدية تأويل النص الأدبي نظريات ومناقشة د ط ضمن كتاب قضايا التلقي والتأويل منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ص 37.

39 – ابن معقل: المأخذ على الكندي ص 16–17.

40– ابن معقل المآخذ على التبريزي ص 33.